

تقديم

علمانية المدفع والدولار والإنجيل

كانت العلمانية الغربية، التى عزلت السماء عن الأرض، وأحلت «العقل والعلم والفلسفة» - أى منظومة التنوير الغربى - محل «الله والكنيسة واللاهوت»، وجعلت من الحداثة «دينًا طبيعيًا» أحلته محل «الدين الإلهي». . كانت - هذه العلمانية - بمثابة «الكأس المسموم» الذى تجرعه المسيحية الغربية، فترنحت . وأصابها الإعياء والعجز والتهميش .

وبشهادة أحد الخبراء الألمان، عالم الاجتماع والنفس «جوتفرايد كونزلن» :

«فلقد مثلت العلمانية: تراجع السلطة المسيحية . . وضياح أهميتها الدينية . . وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية . . والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية . . وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين . .

لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى . . وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقبة التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى .

ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملاً . . وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم . . بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام . . فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هى التى تصنع القانون . . وهى التى تمنح الحرية الدينية . .

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هى العقل والعلم . .

لكن . . . وبعد تلاشي المسيحية . . . سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التي كان الدين يقدم لها الإجابات . . . فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين . . . وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفكك أنساقها العقلية والعلمية عدمية ما بعد الحداثة . . . فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة . . . فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث . . . وتحققت نبوءة «نيتشة» [١٨٤٤ - ١٩٠٠م]: عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون نجمهم الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه» . . . وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائىون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم» . . .

ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاش، بل تزايد . . . وفى ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة . . . من التنجيم . . . إلى عبادة القوى الخفية . . . والخارقة . . . والاعتقاد بالأشباح . . . وطقوس الهنود الحمر . . . وروحانيات الديانات الآسيوية . . . والإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحاً متزايداً فى المجتمعات الغربية . . .

لقد أزال العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا . . . ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى، عندما أصبح معبدها العلمى عتيقاً! . . . ففقد الناس «النجم» الذى كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحى . . . ثم وعد الخلاص العلمانى . . .! ^(١)

تلك شهادة خبير غربى - فى الدين والاجتماع معاً - على تجرع المسيحية الغربية لكأس العلمانية المسموم، الذى أصابها بالهزال والإعياء والتهميش . . . فكان الفراغ الروحى الذى سقطت فيه الشعوب الأوروبية . . . وخاصة بعد إفلاس الحداثة ودينها الطبيعى . . .

* وعلى أرض الواقع، وبالحقائق والأرقام:

(١) جوتفرايد كونزلن: [مازق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] ص ١٧، ١٨. تقديم وتعليق: د. محمد عمارة. طبعة دار نهضة مصر - القاهرة سنة ١٩٩٩م.

- فإن الذين يؤمنون - فى أوروبا - بوجود إله - مجرد وجود إله - لا يتعدون ١٤٪ من الأوروبيين! ..

- والذين يواظبون على حضور القداس بالكنيسة - مرة فى الأسبوع - فى فرنسا - بنت الكاثوليكية، وأكبر بلادها - أقل من ٥٪ من السكان - أى أقل من ثلاثة ملايين فرنسى - أى أقل من نصف عدد المسلمين فى فرنسا! ..

- وفى ألمانيا، توقف القداس فى ١٠٠ كنيسة من أصل ٣٥٠ كنيسة فى أبرشية «أيسن» بسبب قلة الزوار! الأمر الذى زاد من الكنائس المعروضة للبيع، والتحول إلى أغراض أخرى - من مثل: المطاعم والملاهى .. وحتى المساجد .. بينما ارتفع عدد المساجد - فى ألمانيا - من ١٤١ إلى ١٨٧ فى عامى ٢٠٠٥م و٢٠٠٦م وحدهما! .. وبلغت نسبة المواليد المسلمين ١٠٪ من جملة المواليد فى السنوات العشر الأخيرة! ..

- وفى إنجلترا، صنف أكثر من ١,٦٠٠ كنيسة - أى ١٠٪ من الكنائس الانجليزية - رسمياً باعتبارها زائدة عن الحاجة، ومعرضة للبيع .. فى الوقت الذى يتحدثون فيه عن أن عدد المسلمين الانجليز المتزمين دينياً سيتفوق - فى العقود القادمة - على نظرائهم الانجليكانيين! .. ومع أن نسبة المسلمين فى إنجلترا هى ٣٪ من السكان، فإن المواليد الذين أطلق عليهم اسم «محمد» - ٢٠٠٦م - يأتون فى المرتبة الثانية بعد اسم «جاك»!^(١)

- وفى إيطاليا، غنت «مادونا» فى إحدى الكنائس التاريخية، بعد تحويلها إلى مطعم وملهى، وبعد تحويل «المذبح» إلى فرن للبيتزا! ..

- وفى جمهورية التشيك، لا يذهب للقداس سوى ٣٪ بين السكان .. وتباع الكنائس التاريخية، لتتحول إلى مطاعم وملاهى .. ومعرض للبيع منها ١,٠٠٠ كنيسة، أى نصف عدد الكنائس فى جمهورية التشيك! ..

(١) صحيفة [الحياة] - لندن - فى ٨ - ٥ - ٢٠٠٧م. و [نيوزويك] - الأمريكية - فى ٢٧ - ٢ - ٢٠٠٧م. ومجلة [فوكوس] - الألمانية - نقلاً عن صحيفة [المدينة] - السعودية - ملحق [الرسالة] فى ٢١ - ٩ - ٢٠٠٧م.

- وفى ٢٠٠٧م أسلم ١١٤,٠٠٠ فى فرنسا وهولندا وألمانيا والجزء الشمالى من بلجيكا والنمسا^(١).

* وهذا الواقع البائس الذى صنعتته العلمانية بالمسيحية الأوروبية، هو الذى جعل بابا الفاتيكان «بندكتوس السادس عشر» يعلن فى كتابه: [بلا جذور، الغرب، النسبية المسيحية، الإسلام] سنة ٢٠٠٦م - عن مخاوفه الثلاثة:

- ١ - انقراض الأوروبيين المسيحيين - وخاصة الألمان والإيطاليين والإسبان - بسبب تحلل الأسرة، وعدم الإنجاب، وزيادة نسبة الوفيات عن نسبة المواليد .
 - ٢ - وحلول الهجرات المسلمة - العربية والإفريقية - محل المسيحيين الأوروبيين المنقرضين! .
 - ٣ - وأن تصبح أوروبا «جزءاً من دار الإسلام» فى القرن الواحد والعشرين!^(٢).
- هكذا صنعت العلمانية بالمسيحية فى أوروبا .

● لكن مؤسسات الهيمنة الاستعمارية الغربية، التى طأردت الدين واللاهوت فى بلادها، وهمشت دور الكنيسة فى مجتمعاتها، قد ظلت وفيه . للروح الصليبية فى مواجهتها مع الإسلام والمسلمين . واستمرت فى استخدام الدين والكنيسة والتنصير سلاحاً فى الزحف الإمبريالى على عالم الإسلام! .

فسلطاتها الاستعمارية تعمل على علمنة المسلمين، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية للاستعمار الغربى، بتحويل الإسلام إلى روحانية فردية معزولة عن السياسة والاجتماع، مع فتح الأبواب والميادين للكنائس الغربية لتنصير المسلمين، وذلك لإتمام عملية التغريب والتبعية والإلحاق . كى يتأبد النهب الاقتصادى والمسخ الحضارى - اللذين هما الهدف الأول للاستعمار . . .

(١) صحيفة [أويست فرانس] - الفرنسية - نقلاً عن صحيفة [الدعوة الإسلامية] - الليبية - فى ١ - ٨ - ٢٠٠٧م.

(٢) جوزيف راتزنجر - [بابا الفاتيكان بندكتوس السادس عشر] - ومارسيليو پيرا: [بلا جذور، الغرب، النسبية، المسيحية والإسلام] طبعة نيويورك سنة ٢٠٠٦م. وانظر فى ذلك - أيضاً - صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - ملحق «منتدى الكتب» فى ٢٦ - ٤ - ٢٠٠٦م. و: د. محمد عمارة [الفاتيكان والإسلام] طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

فبعد ما يقرب من أربعين عاماً على انتصار الثورة الفرنسية - ذات التوجه العلماني المتوحش - والتي همشت النصرانية وكنيستها - نجد الروح الصليبية حية ومتوقدة وحاكمة في مواجهة الإسلام وأمتة وحضارته، عند احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م .

ويحكي رفاة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ - ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] - وكان شاهد عيان يومئذ بباريس - كيف «أن المطران الفرنسي الكبير لما سمع بأخذ الجزائر - [أى احتلالها سنة ١٨٣٠ م] - ودخل الملك «شارل العاشر» [١٧٥٧ - ١٨٣٦ م] الكنيسة يشكر الله على ذلك - [!!] جاء إليه المطران ليهته على هذه النصر، ومن جملة كلامه - ما معناه :- إنه يحمد الله على كون الملة المسيحية انتصرت نصره عظيمة على الملة الإسلامية، ومازالت كذلك»^(١) .

فالروح الصليبية حاضرة وحاكمة في مواجهة الإسلام وأمتة وعالمه . . وهي توحد «الدولة» و «الكنيسة»، في ظل العلمانية، كما كان الحال في العصور الأوروبية الوسطى، عندما تكون المواجهة مع الإسلام!

● وبعد قرن من الزمان على احتلال فرنسا للجزائر . . احتفلت فرنسا العلمانية بمرور قرن على احتلالها لهذا البلد المسلم سنة ١٩٣٠ م . . ويومئذ لم تنس فرنسا الروح الصليبية المعادية للجزائر المسلمة، والحاكمة على إسلام الجزائريين . . فخطب أحد كبار الساسة الفرنسيين في مهرجانات هذه الاحتفالات، فقال :

«إننا لن نتصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم»! .
وخطب سياسى آخر، فقال :

«لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد قام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه . ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»! . . .

(١) رفاة الطهطاوي [الأعمال الكاملة] ج٢ ص ٢٢٠ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية - بهذه المهرجانات - فقال :

«إن عهد الهلال فى الجزائر قد غبر ، وإن عهد الصليب قد بدأ ، وإنه سيتم إلى الأبد وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً للدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل»! ^(١).

ولقد فطن المسلمون الجزائريون - فى تجربتهم مع الاستعمار الفرنسى - إلى «أن موقف البورجوازية» الفرنسية هذا هو مدعاة للعجب ، فإن هذه البورجوازية نفذت حكم الإعدام فى القسس ، وأحرقت الكنائس ، وحاولت محو الدين المسيحى فى فرنسا المسيحية . . أما فى الجزائر ، فقد اتخذت مسلكاً مخالفاً ، فحولت المساجد إلى كنائس ، ومجدت المسيحية ، واستخدمت أموال المسلمين لتتصيرهم ! . وهكذا أحييت الروح الصليبية عندما رفعت علم المسيحية ضد الإسلام ، فى الوقت الذى ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام فى آن واحد . .»! ^(٢).

فالعلمانية الأوروبية تطارد المسيحية فى بلادها . . لكنها تستخدمها فى مطاردة الإسلام إبان الزحف الإمبريالى على بلاد المسلمين ! . .

● ولقد ظل هذا حال الاستعمار الغربى دائماً وأبداً . . ففى مجتمعاته الأوروبية يتبنى العلمانية التى تهتمش المسيحية . . لكنه فى المستعمرات المسلمة يستخدم النصرانية الصليبية وكنائسها لإقامة القواعد الدينية - إلى جوار القواعد العسكرية - ولتتصير المسلمين ، دعماً للاحتلال ، ولتأييد النهب والتبعية والإلحاق . . صنع ذلك بواسطة إرساليات التبشير النصرانى ومدارسها وجامعاتها ومؤسساتها الثقافية ومنابرها الإعلامية - فى المشرق العربى - تلك التى أعلن القناصل الفرنسيون أن الهدف منها هو «تكوين جيش متفان فى خدمة فرنسا فى كل وقت . . وجعل البربرية العربية - [كذا] - تنحى لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوروبا»! ^(٣).

(١) انظر دراستنا عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمى - بكتابتنا [من أعلام الإحياء الإسلامى] ص ١٢٤ ، ١٢٥ طبعة مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٦ م .

(٢) د . محمود قاسم [الإمام عبدالحميد بن باديس] ص ١٠ طبعة دار المعارف القاهرة - و : د . محمد عمارة [مسلمون ثوار] ص ٤٧٠ طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠٦ م .

(٣) إرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - سنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢ - ١٨٤٨ - ١٨٩٧ - ١٨٩٨ - انظر كتابنا [هل الإسلام هو الحل؟] ص ٢٢ طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ٢٠٠٧ م .

● وعندما عقدت الكنائس الأمريكية مؤتمرها التنصيري الشهير - مؤتمر كولورادو - في مايو سنة ١٩٧٨ م - أعلنت فيه الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام، فقالت - في وثائق هذا المؤتمر -:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية . . والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً . . ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه في صدق ودهاء - [١١] - . . ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وألوية من موضوع تنصير المسلمين . . ولذلك، فعلى مديري إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين . لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصراري والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي . . إن نصارى البروتستانت - في الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا - منهمكون بصورة عميقة في عملية تنصير المسلمين . . ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتفتح بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم . . وعلى المواطنين النصاري في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً، بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين . . إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم . . ويفضل النصاري العرب في عملية التنصير . . إن تنصير هذه البلاد سيتم من خلال النصاري الممتين إلى الكنائس المحلية، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية . .»^(١).

● وفي سبيل اختراق العالم الإسلامي، لتنفيذ هذا المخطط لتنصير المسلمين، نظرت هذه الكنائس وقعدت «للمكافيلية - الصليبية»، عندما أعلنت عن «صنع الكوارث» لاستخدام المعونات والمساعدات لتنصير الفقراء والمحتاجين المسلمين!! . . فالاستعمار الغربي - وحكوماته العلمانية - ينهب ثروات المسلمين، ويحوّل جماهيرهم إلى فقراء ومعدمين . . وكنائس الدول الاستعمارية - تحت حماية المدافع الاستعمارية - تستخدم

(١) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي] - الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو - ص ٤٥٢، ٢٢، ٢٣، ٧٨٩، ٧٩٠، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥. طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا سنة ١٩٩١ م.

كسرة الخبز وجرعة الدواء لتحويل هؤلاء الفقراء المعدمين عن دين الإسلام إلى النصرانية الغربية . .

وهكذا تم ويتم التحالف - غير المقدس - بين «المدفع العلماني» مع «إنجيل المنصرين»! . .

نعم . . نظرت وقعدت هذه الكنائس لهذه «المكيافيلية - الصليبية»، فقالت - في وثائق مؤتمر كولورادو^(١) :

«لكي يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس - أفراداً وجماعات - خارج حالة التوازن التي اعتادوها! . . وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كال فقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعي المتدني . . وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية! . . ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمراً مهماً في عملية التنصير! . . وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى»!!^(١).

«المدفع» العلماني الاستعماري الغربي يحتاج مواطن الثروات في عالم الإسلام، لنهبها . . وفي سبيل ذلك يصنع الكوارث التي تطحن الشعوب الإسلامية . . ثم يفتح الأبواب - تحت قهر المدافع - لإرساليات التنصير كي تقدم العون والمساعدة باسم يسوع المسيح، كي يبيع الفقراء والمعدمون إسلامهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء!! . .

● ولقد وُضع هذا المخطط . . وهذه «المكيافيلية - الصليبية» في الممارسة والتطبيق . . - فهذه الكنائس الأمريكية، التي تتحكم في القوة الأمريكية - الفرعونية والقارونية - بواسطة «التحالف المسيحي» و «اليمن الديني» و «المحافظين الجدد»، قد نصّرت ربع سكان كوريا الجنوبية . . أي أقامت في تلك البلاد «قاعدة دينية نصرانية» إلى جوار «القواعد العسكرية الأمريكية» التي أقامت فيها منذ سنة ١٩٤٥ م. وجعلت من هذه «القاعدة النصرانية» - وهي «كنيسة صائيل»، التابعة لليمين الديني الأمريكي - رأس

(١) المصدر السابق . ص ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧.

حربة فى تنصير العالم، والعالم الإسلامى على وجه الخصوص . . حتى أن عدد المنصرين الكوريين قد بلغ الرقم التالى للمنصرين الأمريكان على النطاق العالمى!! . . وبقيادة الامبريالية الأمريكية - المفترض أنها علمانية - تزامن عمل المنصرين الكوريين والجنود الكوريين مع عمل المنصرين الأمريكيين والجنود الأمريكيين حيثما وجد الغزو الأمريكى لبلاد المسلمين من العراق إلى أفغانستان . . وحتى فى مناطق النفوذ والهيمنة الأمريكية ولإيضاح هذه الحقيقة - التى يجهلها أو يتجاهلها الكثيرون - فإن هذا الفرع الكورى للكنائس الأمريكية - كنيسة صايميل Saemmi Church - لم تقف عند التنصير للكوريين وتحويلهم عن ديانتهم البوذية والكونفوشية فحسب . . وإنما اشتغلت - مع الأمريكان - فى التنصير للعالم . . فأرسلت ١٦,٠٠٠ منصر كورى إلى الدول الآسيوية، وكان نصيب البلاد الإسلامية ٢٥٪ من هؤلاء المنصرين الكوريين! . .

ولقد كان نصيب أفغانستان ملحوظاً فى هذا الجهد التنصيرى . . فالغزو «الأمريكى - الأطلنطى» لأفغانستان سنة ٢٠٠١م قد قضى على مقومات الأمن الغذائى والصحى للشعب الأفغانى، ولم ينعش فى تلك البلاد سوى زراعة المخدرات - التى تضاعفت مساحتها ثلاث مرات! - . . وفى ظل هذا الفقر المدقع - الذى صنته «المدافع العلمانية» تمدد التنصير، الحامل «للإنجيل» مع كسرة الخبز وجرة الدواء! . . وشهيرة تلك الأزمة التى تفجرت إعلامياً فى ١٩ يوليو سنة ٢٠٠٧م، عندما أسرت «حركة طالبان» ٢٣ منصر كورىاً، كانوا يعملون على تنصير المسلمين فى أفغانستان - التى ليس فى شعبها نصرانى واحد! - ويجعلون ضحاياهم يغنون:

«إننى الآن أفهم حب يسوع . هالالويا . إننى الآن نظيف - [وكان الإسلام هو القدرة!] - وقد أصبحت شخصاً آخر . آمين!»

ولقد قامت حركة طالبان بإعدام أحد هؤلاء المنصرين - القس «باى هيونج كيو» Pastor Hyung Ku Bae فى ٢٦ يوليو سنة ٢٠٠٧م . . ثم أفرجت عن الباقين - الذين كان أغلبهم نساء - لقاء فدية . . وبعد تعهد الحكومة الكورية الجنوبية - فى ٢١ يوليو سنة ٢٠٠٧م - بمنع سفر المنصرين إلى أفغانستان، وبسحب جنودها من هناك مع نهاية سنة ٢٠٠٧م . .

كذلك سبق للحكومة الأفغانية أن رحلت ألفاً من هؤلاء المنصرين الكوريين، المتدفعين على أفغانستان في حماية المدافع الأمريكية الأطلنطية! .

ولقد امتد هذا النشاط الكورى - التنصيرى - إلى بلاد إسلامية كثيرة، منها الصومال والسودان وباكستان وتركيا واليشان وداغستان . . ولقد قامت الحكومة الروسية بطرد المنصر الكورى «هنرى لى» من الشيشان وداغستان سنة ٢٠٠٣ م . . (١) .

بل لقد أرسلت هذه الكنيسة الكورية - كنيسة صايميل - قرابة السبعين «متطوعاً» إلى مصر - بلد الأزهر الشريف! - وذلك للعمل في عشر محافظات مصرية، تحت ستار العمل في مجالات «التكوين المهني والكهرباء والكمبيوتر والتمريض وتعليم اللغة الكورية» للمسلمين المصريين! (٢) .

ولقد امتد نشاط هؤلاء المنصرين الكوريين إلى العراق - في ظل الاحتلال الأمريكى سنة ٢٠٠٣ م - وإلى مواطن تجمعات اللاجئين العراقيين في الأردن وغيرها . . حتى لقد هاجم نشاطهم هذا بطريرك الكاثوليك في العراق «إيمانويل ديلى» - في ١٩ مايو سنة ٢٠٠٥ م - قائلاً: «إنهم أتوا لتحويل مسلمين فقراء عن دينهم باستخدام بريق المال والسيارات الفارهة»! . وأشار إلى ما يحدثون - بنشاطهم التنصيرى - من «تدمير التواصل الاجتماعي والديني بين مكونات الشعب العراقي» . .

ولقد أسرت المقاومة العراقية عدداً من هؤلاء المنصرين الكوريين في إبريل سنة ٢٠٠٤ م، وتم الإفراج عنهم، بعد إعدام أحدهم - القس «كيم سون إيل» - في يونيو سنة ٢٠٠٤ م . . (٣) .

● أما الدور التنصيرى الأمريكى المباشر في العراق، فحدث عنه ولا حرج! . .

فعندما قادت أمريكا الحرب التي غزت بها العراق في مارس سنة ٢٠٠٣ م، رأينا نموذجاً صارخاً للحلف «الإمبريالى - الصليبي» . . فهي حرب للسيطرة على ثلثي منابع الطاقة في العالم، ليكون القرن الواحد والعشرون قرن الإمبريالية الأمريكية - وحدها دون شريك! . .

(١) د. محمد السيد سليم - صحيفة [الأهرام] - القاهرة - في ٢، ١٠ - ٩ - ٢٠٠٧ م.

(٢) المرجع السابق. في ١٠ - ٩ - ٢٠٠٧ م.

(٣) المرجع السابق. في ٢ - ٩ - ٢٠٠٧ م.

وفى سبيل ذلك وظفت هذه الإمبريالية الأمريكية مؤسسات الصليبية والتنصير لكسر شوكة الإسلام المجاهد - الذى أطلقت عليه أوصاف «الأصولية» و «الإرهاب» و «الأشرار» - ولقد نشرت مجلة «نيوزويك» - الأمريكية - إبان الحرب على العراق - عدد ١١ - ٣ - ٢٠٠٣م - أن الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» قد أقنع نفسه ، وأعلن أن حربه على العراق «هى حرب عادلة ، وفق المفهوم المسيحى ، كما شرحه القديس أغسطين [٣٥٤ - ٤٧٠م] فى القرن الرابع . . وكما فصله كل من القديس توما الإكوينى [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] ومارتن لوتر [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] وآخرون ! وأنه - أى بوش - قد «نبش كلمة «الأشرار» - التى أطلقها على العراق وأفغانستان وإيران - وكل قوى الممانعة الإسلامية - من سفر الزامير» ! . . وأنه يبدأ عمله صباح كل يوم بالمطالعة - بناء على توصية القس «بيل جراهام» - فى كتاب القس «أوزوالد شامبرز» - الذى مات سنة ١٩١٧م . وهو يعظ الجنود البريطانيين والأستراليين بالزحف على القدس لانتزاعها من أيدي المسلمين! . . .

كما نشرت المجلة - الأمريكية - فى ذات العدد - دعم «المؤتمر المعمدانى الجنوبى» وقساوسته السياسيين - من أمثال «ريتشارد لاند» و «فرانكلين جراهام» - لغزو العراق ، ولتنصير المسلمين فيه! . . وبعبارة «نيوزويك» :

«فإن هؤلاء المبشرين الإنجليز لا يخفون رغبتهم فى تحويل المسلمين إلى المسيحية ، حتى - لا بل لا سيما - فى بغداد»^(١)

ولقد نشرت «نيويورك تايمز» - فى عددي ٥ ، ٦ - ٤ - ٢٠٠٣م - أى إبان الغزو للعراق - أن جيشاً من المنصرين الأمريكين قد صحب الجيش الأمريكى الزاحف على العراق من الكويت . . وأن «من بين تلك الجماعات التبشيرية المصاحبة للجيش الأمريكى فى حربه على العراق مبشرين تابعين للكنيسة المعمدانية والكنيسة المنهجية . . حيث ذكر ممثلو الكنيسة المعمدانية أنه منذ بدأت الحرب الأمريكية على العراق تطوع نحو ٨٠٠ مبشر من خلال مجلسها التبشيرى لتقديم الدعم الروحى والمادى للشعب العراقى باسم يسوع المسيح! . . ومن بين هؤلاء المبشرين «فرانكلين جراهام» - الذى دشن حفل تنصيب

(١) [نيوزويك] فى ١١ - ٣ - ٢٠٠٣م .

«بوش» رئيساً لأمريكا - والذي وصف الإسلام بالشر والعنف والإرهاب، وتناول كثيراً على النبي وعلى الإسلام! . . . ووالده «بيل جراهام» - الذي وصف نبي الإسلام بأنه إرهابي ووثني! . . .

ولقد أعلن «فرانكلين جراهام» - وهو بالكويت، يهم بدخول العراق، في ركاب الجيش الأمريكي -: «لقد جئت إلى هنا تمهيداً لدخول العراق، فرغم أن نسبة المسلمين في العراق تشكل ٩٧٪ من إجمالي تعداد السكان، إلا أننا يجب ألا ننسى أن المسيحية سبقت الإسلام في دخول العراق! . . . إنني هنا لدعم مسيحيي العراق! . . . وعندما نقدم الدواء أو الطعام لغير المسيحيين فإننا لا نفعل ذلك باسمنا، ولكننا نفعل ذلك باسم ابن الرب!! . . .

ولقد تحدثت «نيويورك تايمز» - عدد ٦ - ٤ - ٢٠٠٣م - عن العقيدة المسيحية الصهيونية الموجهة لأركان الإدارة الأمريكية - التي شنت الحرب على العراق - والتي أعلنت «الحملة الصليبية» ضد الإسلام - في ١٦ / ٩ / ٢٠٠١م - فقالت الصحيفة الأمريكية:

«إن السيد «كولن باول» يصف نفسه بأنه عاشق للطقوس الكنسية المسيحية الصهيونية . . . والسيدة «كوندوليزا رايس» كان والدها قسيساً بإحدى كنائس المسيحية الصهيونية بولاية ألاباما . . . و«ديك تشيني» يؤمن بنفس المنهج التبشيري للرئيس جورج بوش، والقائم على فكرة أن الطريق إلى التبشيرية يبدأ بالمدفع والإنجيل! . . . ونفس الأمر ينطبق على وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» . . . في حين تؤثر ديانة «بول وولفويتز» - اليهودية - على توجهاته السياسية . . . مما دفع بعض المراقبين للقول:

إن السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الحالية تتم صياغتها والتعبير عنها طبقاً للمعتقدات التنصيرية، وتقسيم العالم إلى مؤمنين ووثنيين!!^(١).

هكذا استخدمت - وتستخدم - العلمانية الغربية «المدفع والإنجيل» في مواجهة الإسلام والمسلمين! .

(١) [نيويورك تايمز] في ٥، ٦ - ٤ - ٢٠٠٣م. والنقل عن صحيفة [الأسبوع] - القاهرة - في ١٤ - ٤ - ٢٠٠٣م.

إن الغرب، الذى زرع - ويزرع - العلمانية فى المجتمعات الإسلامية، بواسطة سلطات الاستعمار المباشر، وبواسطة المتغربين العلمانيين من أبناء جلدتنا الذين صنعهم على عينه فى بلادنا . . هو الذى أعلن الحرب على الإسلام، عندما جعله العدو و«الخطر الأخضر» الذى أحله محل «الخطر الشيوعى الأحمر» فور سقوط الشيوعية وأحزابها وحكوماتها أوائل ١٩٩١ م . . لا لشيء إلا لاستعصاء الإسلام على العلمنة، ومن ثم استعصائه على التبعية والذوبان فى النموذج الحضارى الغربى، ورفضه - من ثم - الاستسلام للإمبريالية الغربية . .

لقد أعلن هذا الغرب الإمبريالى الحرب على الإسلام وأمتة وحضارته وعالمه كى يجبره «كأس العلمانية المسموم»، الذى همش المسيحية الغربية وأصابها بالهزال والإعياء والإفلاس . .

وعن هذه الحقيقة كتبت مجلة [شئون دولية] - الصادرة فى «كمبريدج» بلندن - عدد يناير سنة ١٩٩١ م - تقول:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتى . وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول! . .

إن أوروبيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلة؟ أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى/ الغربى الذى يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديمقراطية علمانية؟ .

إن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول: إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يقوض الإيمان الدينى، صالحة على العموم . . لقد تناقص التأثير السياسى والسيكولوجى للدين، عملياً، فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة . . لكن عالم الإسلام استثناء مدesh وتام جداً من هذا! . . فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة

نوعاً ما ، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحاً في ظل مجموعة مختلفة من النظم السياسية ، فهو صحيح في ظل نظم راديكالية (ثورية) اجتماعياً ، وهو صحيح أيضاً في ظل النظم التقليدية ، وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التي تقف بين النوعين . .

إن وجود تقاليد محلية للإسلام . . قد مكن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرقت مجتمعات أخرى أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال . . معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب ، ومحاكاته . . لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتي ، باسم الإيمان المحلي ، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة .

إن الإسلام ، من بين الثقافات الموجودة في الجنوب ، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفنور الهمة واللامبالاة ، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات مادياً ، فضلاً عن هلاكها المعنوي . .^(١)

وعن ذات الحقيقة - حقيقة استعصاء الإسلام على العلمنة والتبعية للنموذج الغربي . . وعداء الغرب للإسلام بسبب هذه الممانعة الفريدة والأكيدة - يقول المفكر الاستراتيجي الأمريكي «فوكوياما» :

«إن الحداثة التي تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة ، ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية ، والمؤسسات التي تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم . . وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولا لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية ، إن لم نقل جميعها . . ولكن السؤال هو :

- هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم ، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث - بهذا المعنى الأمريكي والغربي؟^{١٩}

ثم يجيب «فوكوياما» على هذا التساؤل الذي طرحه ، فيقول :

(١) مجلة [شئون دولية] عدد يناير سنة ١٩٩١م - ملف عن «الإسلام والمسيحية» لعالم الاجتماع «إدوارد مورتيمر» و «الإسلام والماركسية» لعالم الاجتماع «إرنست جيلنر» .

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدل بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة . . فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: العلمانية نفسها . . وإنه بينما تجدد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها - لو أنها فقط استطاعت ذلك - فإن الأصوليين المسلمين يرون فى هذه الاستهلاكية دليلاً على الانحلال الغربى» . .

ويعترف «فوكوياما» أن هذا الاستعصاء الإسلامى على العلمنة، وهذه الممانعة الإسلامية للحداثة الاستهلاكية الغربية هى سبب الحرب التى يشنها الغرب على الإسلام - وليس السبب هو ما يسميه الغرب بالإرهاب! - فيقول:

«إن المسألة ليست - ببساطة - حرباً على الإرهاب، كما تظهر الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم - [١٩] - وليست المسألة الحقيقية - كما يجادل الكثير من المسلمين - هى السياسة الخارجية الأمريكية فى فلسطين، أو نحو العراق . إن الصراع الأساسى الذى نواجهه، لسوء الحظ، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماءهم الدينى جميع القيم الأساسية الأخرى . . إن الصراع الحالى ليس - ببساطة - معركة ضد الإرهاب . . ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية . . إنه يشكل تحدياً أيديولوجياً هو، فى بعض جوانبه، أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية .

وإن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية . . أم لا [١٩] . .^(١)

(١) [نيوزيك] - العدد السنوى: ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م.

فهذه الحرب الصليبية الغربية المعلنة على الإسلام وأمتة وحضارته - والتي تقودها أمريكا - ليس سببها - باعتراف «فوكوياما» - ما يسمى بالإرهاب . . وإنما السبب الحقيقي والأعمق هو استعصاء الإسلام على العلمنة . . ورفضه للحدث الاستهلاكية الغربية! . .

● وإذا كان هذا هو تاريخ الغرب العلماني في استخدام الصليبية سلاحاً في مشروعه الإمبريالي ضد العالم الإسلامي - وهو تاريخ قديم قدم المشروع الإمبريالي الغربي - :
- الذي استخدم النصرانية الرومانية والبيزنطية لقهر النصرانية الشرقية ، لعدة قرون قبل ظهور الإسلام ، والفتوحات الإسلامية .

- والذي استخدم الحملات الصليبية مدة قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ - ١٠٩٦ م - ١٢٩١ م] لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام . .

فإن هذه النزعة الدينية الصليبية قد انتعشت وتزايدت في اللغة الغربية والسياسات الغربية والممارسات الغربية ولدى النظم الغربية - المفترض علمانياتها! - في العقود الأخيرة ، لأسباب عديدة منها الصحوة الإسلامية التي أعادت الإسلام ليكون «الفكرية - والأيدولوجية» التي يواجه بها المسلمون الإمبريالية الغربية - بعد سقوط الخيارات والنماذج التغريبية في المجتمعات الإسلامية . .

وعن هذه الحقيقة الهامة - حقيقة تزايد اللغة الدينية والتأثير الديني لدى المؤسسات السياسية الغربية - تقول مجلة [شئون دولية]:

«إنه من الواضح أن الدين أصبح يقتحم الشؤون الدولية بصورة متزايدة ، أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها . . .

ويصعب أن تكون مصادفة أن الديمقراطيين المسيحيين في كل بلد أوروبي موجودون على الدوام بين أشد أنصار الوحدة الأوروبية حماساً ، أو أن القادة القوميين الثلاثة الذين أرسوا أسس الاتحاد الأوروبي الحالي - كونوراد أديناور [١٨٧٦ - ١٩٦١ م] والسيد دي جاسبري [١٨٨١ - ١٩٥٤ م] وروبرت شومان [١٨٨٦ - ١٩٦٣ م] - كانوا جميعهم من الديمقراطيين المسيحيين ، ومن الكاثوليك المخلصين . . .

إن هناك انطباعاً قوياً بأن الإشارات إلى المسيحية - فى سياق دولى - قد تضاغت فى وسائل الإعلام الغربية . . ولا شك أن السبب الرئيسى فى هذا هو التغييرات التى وقعت فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية . . ففى بعض بلدان أوروبا الشرقية لعبت الكنيسة دوراً مهماً فى إحداث التغيير السياسى : بولندا بصورة واضحة ، وألمانيا الشرقية بصورة غير متوقعة ، بدرجة أكبر ، وكذلك تشيكوسلوفاكيا إلى حد ما .

وفى الاتحاد السوفيتى بدأ التغيير من أعلى ، وعلى يد المثقفين العلمانيين ، لكن دور المنشقين المسيحيين فى مقاومة النظام ، وتقديمهم لإدائته لم يكن بحال من الأحوال أمراً تافهاً ، والأمر الذى كان مدهشاً حقاً هو السرعة التى اتجه بها المجتمع والدولة على حد سواء إلى الكنيسة فى بحث يائس عن شىء يملأ الفراغ الأخلاقى المروع الذى كشف عنه انهيار الأيديولوجية الشيوعية . .

وكان لهذه الأحداث تأثير مدهش على المواقف الغربية . . فبدلاً من الكتلة السوفيتية . . اكتشفنا زملاء أوروبيين يشاركوننا ميراثنا الحضارى والدينى . .

وكان لا بد لأوروبا - التى اعتادت أن تعرف نفسها من خلال تحديد الآخر - أن تبحث عن آخر جديد يحل محل الاتحاد السوفيتى والمعسكر الشرقى بعدما انهارت أيديولوجيته ، وكان هذا الآخر هو الإسلام . . إننا فى وقت يسود فيه انطباع قوى بتضاغف الإشارات إلى المسيحية فى السياق الدولى . .

هكذا حللت المجلة الأكاديمية الرصينة هذا المتغير الهام . . متغير عودة العامل الدينى إلى السياسات الغربية من جديد . . وبصورة ملحوظة ومؤثرة ومتزايدة . . بعد أن كان المجتمع الدولى للقرن العشرين تسوده الثقافة الغربية الحديثة ، وواحدة من سماتها العلمانية . .^(١)

وخلاصة هذا التحليل هى :

١ - عودة العامل الدينى إلى الدخول والبروز والفعل والتأثير فى السياسات الغربية . .

(١) [شئون دولية] - مصدر سابق .

٢- ودور المسيحية - والأحزاب المسيحية الديمقراطية - فى تأسيس الوحدة الأوروبية .
٣- ودور الكنائس الأوروبية فى إسقاط الشيوعية ، وإعادة أوروبا الشرقية إلى الحضارة الغربية : المسيحية / اليهودية .

٤- وعودة الدين كى يصبح «معيّاراً» فى تعريف أوروبا «نفسها» إزاء «الآخر» .
٥- ودور هذا العامل والمعيّار الدينى فى اختيار الغرب للإسلام عدوّاً أحله محل العدو الشيوعى !! أى عودة النزعة الصليبية - من جديد - إلى السياسة الدولية ، وخاصة فى المواجهة الغربية مع الإسلام .
وفى الحقبة الرومانية والبيزنطية تجلّت الوحدة بين «القيصرية» و «الكنيسة» فى مواجهة الشرق ونصرايته .

وفى الحقبة الصليبية - بالعصور الوسطى الأوروبية - توحد «أمراء الإقطاع الأوروبيون» مع «الكنيسة» و «البرجوازية التجارية» ضد الإسلام والشرق الإسلامى .

واليوم . . وعقب سقوط «الخطر الشيوعى الأحمر» - وتوحد الغرب فى إطار الحضارة المسيحية اليهودية - وإحلال الغرب الإمبريالى الإسلام وصحوته عدوّاً وخطراً أخضر . . تعود الوحدة لمؤسسات الهيمنة الغربية فى المواجهة مع الإسلام . . وفى مقدمة هذه المؤسسات «المؤسسات السياسية» و «الكنائس الغربية» .

● وفى ضوء هذا المتغير - الذى يجب أن يأخذ حقه فى الدرس والتحليل - نفهم الحديث عن وجوب جعل أوروبا «نادياً مسيحياً» مغلقاً فى وجه تركيا المسلمة - وهو موقف يعلنه السياسى الفرنسى «جيسكار ديستان» - واضع دستور الاتحاد الأوروبى - . . ونفهم موقف الفاتيكان الرافض لدخول تركيا إلى هذا «النادى المسيحى» ! . .

ونفهم - كذلك - تخلى العلمانية الفرنسية عن حيادها إزاء الأديان ، لتقف - فى مسألة الحجاب - ضد الشعائر الإسلامية على وجه الخصوص ! . .

ونفهم إعلان بابا الفاتيكان «بندىكتوس السادس عشر» عن مخاوفه الثلاثة :

١ - انقراض المسيحيين الأوروبيين ديموجرافياً .

٢- وحلول الهجرات الإسلامية - العربية والإفريقية - محل المسيحيين الأوروبيين المنقرضين . .

٣- ونحول أوروبا إلى «جزء من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين»^(١).

ونفهم اتحاد المؤسسات الغربية، واجتماعها - سياسية ودينية - على التخويف من الإسلام . . فمع القوانين المقيدة لحريات المسلمين في الغرب، والتي تقنن التمييز العنصري ضدهم . . ومع حملات الإعلام والثقافة التي تشيع الكراهية ضد الإسلام والمسلمين - والتي تمارسها المؤسسات السياسية الغربية - تأتي تصريحات كبار الكرادلة المحرضة على الإسلام والمسلمين . .

- فالكاردينال الإيطالي «جاكوموبيني» - أسقف بولونيا - يدعو إلى «استئصال المسلمين من أوروبا» . . فصورة أوروبا والغرب - بل والعالم - بنظره - لا يمكن أن تكون متعددة الديانات ! . . ووفق عبارته : «فلما أن تتحول أوروبا إلى مسيحية فوراً، وإلا ستكون إسلامية مؤكداً»^(٢).

- والكاردينال «بول بوبار» - مساعد بابا الفاتيكان، ومستول المجلس الفاتيكانى للثقافة - يعلن : «إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوروبا وللغرب عمومًا»^(٣).

- والمونسنيور «جوزيبى برناردينى» يقول - فى حضرة بابا الفاتيكان - : «إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ يسيطرته بفضل دولارات النفط . وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية . فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع، وفتحاً جديداً»^(٤).

- والحكومات الغربية - التى كانت حارسة للحياد بين الأديان - غدت الحامية للتهجم على الإسلام ورموزه ومقدساته، تحت ستار «حرية التعبير» ! . . وبعد أن كانت شديدة العداء ضد الأحزاب الفاشية الجديدة، رأيناها تفسح المجال للمظاهرات التى تقودها

(١) [بلا جذور، الغرب، النسبية، المسيحية والإسلام] - مصدر سابق.

(٢) صحيفة [العالم الإسلامى] - مكة - فى ٦ / ١٠ / ٢٠٠٠ م.

(٣) صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - فى ١ / ١٠ / ١٩٩٩ م.

(٤) المرجع السابق . فى ١٣ / ١٠ / ١٩٩٩ م.

هذه الأحزاب الفاشية - فى العديد من العواصم والمدن الأوروبية - فى سبتمبر سنة ٢٠٠٧م - ضد ما يسمونه «خطر أسلمة أوروبا»!! .

هكذا يتصاعد التحالف «العلمانى - الصليبي» الغربى ضد الإسلام والمسلمين . . .
وتزايد - فى مواجهة الصحوة الإسلامية والصمود الإسلامى - «اللغة الدينية» فى المؤسسات الغربية - العلمانية والدينية جميعاً . . . وتسعى الإمبريالية الغربية - فى سبيل استعمارها الجديد لعالم الإسلام - إلى استخدام «المدفع . . . والإنجيل» لكسر شوكة الإسلام والصحوة الإسلامية التى سرت وتسرى روحها بين جماهير المسلمين .

ويجد المسلمون أنفسهم اليوم - كما وجدوها على امتداد تاريخهم الطويل - أمام السنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل :

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُوكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة : ٢١٧] .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

[الصف : ٨] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْضَحُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال : ٣٦ - ٣٧] .

صدق الله العظيم

بهذه الصفحات - المليئة بالحقائق والوثائق - نقدم - تقديمًا جديدًا - لهذا الكتاب [الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانيين]

سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بطبعاته السابقة . . . إنه خير مسئول . . . وأكرم مجيب

رمضان ١٤٢٨هـ

د. محمد عمارة

أكتوبر ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم فضيلة الإمام الأكبر الشيخ:

جاء الحق على جاد الحق

(شيخ الأزهر الراحل - رحمه الله)

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله . . وبعد:

فإن جدلاً كثيراً يدور في بلادنا العربية والإسلامية، وبصوت عالٍ حول «العلمانية» وحول موقف الإسلام والمسلمين منها . . بل إن الكثيرين يتساءلون عن ماهية هذه العلمانية؟ ويريدون أن يعرفوا - بعد فهم ماهيتها - هل لها مكان طبيعي في عالم الإسلام وأوطان المسلمين؟

وكان هذا - وبصفة خاصة - بسبب تراجع بل وسقوط كثير من النظريات والمذاهب الوضعية، في تدبير الدولة وال عمران، والاجتماع الإنساني، وما صاحب هذا التراجع من بروز وتعاضل مكانة المنهاج الإسلامى فى سياسة الدول، وبناء الحضارة، وتنمية العمران، إذ غدت المقارنة بين المنهج الإسلامى، الذى يصبغ العمران بالصبغة الإلهية، ويضبط الخلافة الإنسانية بالشرعية الإسلامية - غدت المقارنة - بين واقع المنهج الإسلامى، وبين العلمانية، التى تعزل الدين عن كل شئون العمران - فى المعارف . . والتطبيق . . والسلوك - واحدة من أبرز القضايا، التى يدور حولها الجدل، فى وطن العروبة وعالم الإسلام . .

وإذا كان لابد من كلمات فى التقديم لهذا الكتاب، الذى يطرق مبحث (الإسلام والسياسة) والذى يرد على (شبهات العلمانيين) . . وهو أحد الأعمال الفكرية،

للأستاذ الدكتور/ محمد عمارة - فإن من الأهمية بمكان - فى هذا التقديم - الإشارة إلى استظهار بعض الحقائق فى عدد من النقاط . .

● فالعلمانية مذهب من مذاهب الحضارة الغربية، الحديثة والمعاصرة، يدعو إلى عزل الدين عن أن يكون إطاراً وضابطاً فى النشاط الدنيوى للإنسان . . فيفك الارتباط، ويقصم العلاقة بين الشريعة الإلهية، وبين الدولة والسياسة، والاجتماع والاقتصاد والسلوك . . أى يعزل الدين عن الدنيا، وذلك باستثناء خصوصيات العقائد، والشعائر العبادية . .

● وهذه العلمانية قد نشأت فى الغرب، إبان نهضته الحديثة، كرد فعل لحكم الكنيسة وتحكمها، عندما حول هذا الحكم الكنسى شئون الدنيا إلى كهنوت دينى مقدس، الأمر الذى أدى إلى ثبات المتغيرات الدنيوية - الفكرية والعلمية - فدخلت المجتمعات الغربية - بسبب هذا الحكم الكهنوتى - فى عصور التخلف والجمود والظلام . . حتى جاءت العلمانية - كرد فعل - داعية إلى عزل الدين عن شئون الدنيا . . ومن هنا، وبسبب هذه الملابسات الخاصة لنشأة العلمانية، كانت نسبتها - كمصدر غير قياسى - إلى «العالم» بمعنى «الدنيا» و «الواقع» فى مقابل «الدين» و «المقدس» . . وليس إلى «العلم» كما يحسب بعض الناس . . فالمصدر القياسى لها هو (العلمانية) - من «العالم» بمعنى «الدنيا» و «الواقع» اللذين لا قداسة لهما ولا ثبات، ولا دين يحكم شئونهما فى نظر العلمانيين . .

● وفى ضوء هذه الحقيقة . . حقيقة النشأة الغربية للعلمانية، كثمرة غربية لملابسات غربية، تأتى مشروعية التساؤل عن احتياجات المجتمعات الإسلامية لهذه العلمانية . ؟

إن النصرانية تقول: إنها رسالة روحية، وتختصر همها فى خلاص الروح، وفى مملكة السماء . . ولذلك كان تطلع كنيستها إلى شئون الدولة وال عمران الدنيوى، تجاوزاً لمبدئها الداعى إلى أن تدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله . . فإذا جاءت العلمانية لترد النصرانية إلى داخل الكنيسة، ولتختصرها فى إطار علاقة الفرد بالخالق، جاز لها ذلك، بل وكان موقفها هذا تصحيحاً للخطأ الذى تجاوزت به الكنيسة الغربية حدود نصرانيتها . .

وليس هكذا الحال مع الإسلام، والحضارة الإسلامية . .

فالإسلام منهاج شامل للدين والدنيا . . للعقيدة والشريعة، والحضارة والأخلاق . . للحياة الدنيا والآخرة، التي هي خير وأبقى . . فالدعوة إلى إبعاد الإسلام - بالعلمانية - عن سياسة الدولة وشئون العمران، هي قطع لإحدى ساقيه، وتعطيل لإحدى رجليه، وكفران ببعض آيات كتابه، ينتقص من كمال واكتمال الإيمان بهذا الإسلام . . وإذا كانت العلمانية، في نشأتها الغربية، قد جاءت كرد فعل للتجاوز الكنسى، ولحكم الكهانة، وتحكم طبقة الكهان . . فإنها، بذلك، تكون (حلاً غريباً) لـ «مشكلة غربية» وهذه المشكلة - الكهانة والكهنوت ووجود طبقة لرجال الدين، واحتكار هذه الطبقة لشئون الحكم - هي مشكلة لم تعرفها الحضارة الإسلامية ولا تاريخ المسلمين؛ لأن الإسلام يفرض ذلك كله من الأساس . .

ولذلك يبدو شذوذ الدعوة إلى العلمانية، في الواقع الإسلامى، باعتبارها دعوة إلى «حل» ليست له «مشكلة» فى عالم الإسلام؟ . .

وحتى يموه العلمانيون على الناس شذوذ دعوتهم هذه، نجدهم يشوهون صورة الإسلام والتاريخ الإسلامى، حتى يصبح الإسلام مثل النصرانية، يدع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله . . وحتى يصبح تاريخ الخلافة الإسلامية كهانة وكهنوتاً، وكأنهم بهذا التمويه - يفتعلون «مشكلة» ليفتعلوا لها «حلاً» . . وذلك بدلا من الاعتراف بتميز الإسلام عن غيره . . وتميز تاريخ المسلمين السياسى عن كهانة النصرانية وتاريخ الغرب، وحكم كنيسته، بما عرف لديهم «بالتفويض والحق الإلهى» .

● وأمام خطر هذه القضية . . وخطورة التمويه العلمانى . . تتأكد أهمية هذا الكتاب الذى نقدمه إلى المسلمين، ليزدادوا إيماناً بشمول المنهاج الإسلامى لكل ميادين العمران البشرى . . عقيدة وشريعة، وحضارة وخلقاً . . بل وإلى العلمانيين ليثوبوا إلى عقيدة الإسلام وشريعته، إطاراً حاكماً وهادياً فى كل شئون الحياة . .

فعندما تقدم صفحات هذا الكتاب الرؤية الإسلامية، لعلاقة الإسلام بالسياسة، ولمعنى «إسلامية الدولة» وعندما تتبّع بدايات ومراحل الاختراق العلمانى للفكر العربى، فى ظل الغزوة الاستعمارية الغربية لبلادنا . . ولموقف تياراتنا الفكرية من هذا الاختراق العلمانى . .

ثم تفصل الحديث فى الرد على أبرز شبهات العلمانيين من مثل :

- الخشية من «التطبيق البشرى للشرعة الإلهية» . .

- والخشية من «الاستبداد باسم الدين» . .

- والخشية من الحكم الإسلامى على الوحدة الوطنية . . إلخ إلخ .

عندما تقدم صفحات هذا الكتاب الرؤية الإسلامية لهذه القضايا - وغيرها مما يتعلق بهذا الموضوع - فإنه يكون عملاً فكرياً، جديراً بأن يسهم فى ترشيد الحياة الفكرية، فى العالم الإسلامى، وتبيان صفحة من صفحات أصالتنا الإسلامية . . تزيد المؤمنين بالمنهاج الإسلامى إيماناً . . وتقدم للذين لا يعلمون . . بل وللضالين عن هداية هذا المنهاج، النور الذى يضىء لهم سبيل العودة إلى أحضان الإسلام، وإلى جماعة المسلمين . .

والله من وراء القصد . . نسأله، سبحانه وتعالى، أن ينفع بهذا الكتاب . . وبكاتبه . . إنه سميع مجيب الدعاء . . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهدى الإسلام إلى يوم الدين . .

شيخ الأزهر

جاد الحق على جاد الحق

٢٨ من ذى الحجة ١٤١٢هـ

٢٩ من يونيو ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة طيبة

الإسلام: دين ودولة.. وكما كان النبي ﷺ حامل الرسالة الإسلامية، فلقد كان مؤسس الدولة الإسلامية أيضاً.

والمدينة الإسلامية: هي ميراث حلال لكل أبناء الشرق، من المسلمين والكتابين، وتاريخهم مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدينة.

وهناك رأى يقول:

إن على مصر أن تنظر إلى المدينتي الغربية، فتختار من كل أحسنه. وأكبر ضعف في هذا الرأي، أنه ينسى أن مصر لها مدنية أصيلة، وحاجتها الآن هي: جعل هذه المدينة ملائمة للعصر الحاضر. وليست مصر هي الدولة الطفيلية الحديثة التي ترقع لها ثوباً من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخياطون؟!..

د. عبد الرزاق السنهوري باشا

«أبو القانون المدني الحديث»

obeikandi.com

تقعيد

عن الإسلام والسياسة

ليس هناك خلاف فى فكرنا - القديم منه والحديث - على تعريف «الإسلام» . . فهو الخضوع والانقياد لله - سبحانه وتعالى - وفق ما جاء به وأخبر عنه الرسول ﷺ من الشرائع والأحكام^(١) . .

أما «السياسة» ، فإن فى مضمون مصطلحها خلافاً :

فقبل الاحتكاك الفكرى بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية بعد الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لديار الإسلام ، وعندما كانت المضامين «العربية - الإسلامية» هى الوحيدة والسائدة والشائعة فى معاجمنا وقواميسنا وموسوعاتنا ، لم يكن هناك خلاف فى مضمون مصطلح «السياسة» ؛ لأن هذا المضمون الإسلامى كان تعبيراً أميناً عن صورة الإنسان كما صورها وتصورها الإسلام .

الإنسان : الخليفة عن الله - سبحانه وتعالى . . الحامل لأمانة عمران الحياة الدنيا كابتناء وامتحان ومعيار للحياة الآخرة . . التى هى خير وأبقى . . فسياسته لعمران الدنيا ليست هى المقاصد والغايات ، وإنما هى السبل والوسائل للدار الآخرة . . وهو ، بحكم خلافته عن الله ، ليس سيد هذا الكون . . وإنما هو عبد لسيد هذا الكون ، وإن كان سيداً فيه . . هو عبد لله وحده : وسيد لكل شئ بعده ! . . ومن ثم كانت حرية هذا «العبد - السيد» محكومة بشرعية خالقه ، التى هى بنود عقد وعهد الاستخلاف ، الأمر الذى جعل المضمون الإسلامى للسياسة فى العمران الإسلامى لا يقف عند المعايير

(١) انظر (التعريفات) للجرجاني . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م و [معجم ألفاظ القرآن الكريم] . وضع مجمع اللغة العربية - طبعة سنة ١٣٧٠هـ ١٩٧٠م .

المادية فى حدودها الدنيوية معزولة عن معايير الصلاح الأخرى . . وإنما ربط هذا المضمون الإسلامى لمصطلح السياسة بين المعايير الدنيوية والأخرى بعروة وثقى ! . .

لقد عرفت القواميس الإسلامية «السياسة» - انطلاقاً من هذه «الصورة الإسلامية» للإنسان، بأنها: «هى استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والأجل . وتبدير المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة . .»^(١)

فهى ليست مطلق طلب الصلاح والمصلحة الدنيوية والعاجلة . . بل الصلاح والمصلحة التى تجعل نجمة الدنيا محققة للنجاة فى الآخرة . . وهى ليست مطلق تدبير المعاش وتنميته وفق المعايير الدنيوية وحدها . بل التدبير المحكوم بمعايير سنن العدل والاستقامة، التى وضعها الخالق لخليفته إطاراً وفلسفة حاكمة لسياسة العمران . .

ولما كان العمران البشرى فى الدنيا هو ميدان «السياسة»، وفيه من «المتغيرات» و«المستجدات» أكثر مما فيه من «الثوابت» . . جاءت نصوص الدين والشرع الإلهى متناهية، بينما لا تنتهى متغيرات العمران الدنيوى ومستجداته . . فكان أن وقفت النصوص الشرعية، فى سياسة العمران، عند الثوابت والكليات، والفلسفات، والقواعد، والمبادئ، والأطر الحاكمة، تاركة للعقل الإنسانى والاجتهاد البشرى حرية التفريع والبناء، والتفصيل والإبداع، فى إطار القواعد والمبادئ والأطر الحاكمة، تحقيقاً لإسلامية العمران المتجدد، بمد فروع إسلامية من الأصول والقواعد، لتظلل بالإسلام هذه المتغيرات والمستجدات . . فتتواصل الصبغة الإسلامية للعمران، دوغماً جموداً . . ودوغماً قطيعة مع الأصول .

ولتحقيق هذه الخصيصة التى اقتضاها - ختم الرسالات الإلهية برسالة سيدنا محمد ﷺ - استقر رأى فى الفكر السياسى الإسلامى على أن «شرعية» السياسة لا تقف عند ما نص عليه الشرع، وإنما هى - «الشرعية» - متحركة فيما يبدع المسلمون من السياسات، طالما أنها لا تخالف ما شرعه الله . . «فالسياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحى . . فهى لا تنحصر فيما نطق به الشرع، وإنما تشمل ما لم يخالف ما نطق به الشرع . . والسياسة العادلة غير مخالفة للشرعية الكاملة، بل

(١) أبو البقاء (الكليات): تحقيق: د. عدنان درويش. محمد المصرى. طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م.

هى جزء من أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى، وإلا فإذا كانت عدلاً فهى من الشرع.

وتقسيم بعضهم الحكم إلى: شريعة، وسياسة، كتقسيم غيرهم الدين إلى: شريعة، وحقيقة، وتقسيم آخرين الدين إلى: عقل ونقل. وكل ذلك باطل.

بل السياسة، والحقيقة، والطريقة، والعقل، كل ذلك ينقسم إلى قسمين: صحيح وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة، لا قسم لها، والباطل ضدها ومنافيا لها. ومن له ذوق فى الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد فى المعاش والمعاد، ومجيئها بغاية العدل الذى يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها موضعها، وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها ألبتة، فإن السياسة نوعان: سياسة ظالمة، فالشريعة تحرمها، وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهى من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها^(١).

هكذا، استقر فى الفكر الإسلامى الإخاء بين «إسلامية» مضمون مصطلح «السياسة» انطلاقاً من صورة الإنسان فى الإسلام - صورة الإنسان الخليفة عن الله - ومن كون سياسته للعمران البشرى هى الأمانة التى حملها والتكليف الإلهى الذى اختاره، كرسالة محكومة بحريته فى أدائها بالشريعة الإلهية، التى هى بمثابة بنود عهد وعقد الوكالة والاستخلاف. ولم تقف هذه «الإسلامية» لـ «السياسة» عند حدود ما نصت عليه النصوص المتناهية، بل امتدت - باستصحاب ضوابط النصوص وروحها وفلسفة قواعدها - امتدت، بالاجتهاد الإسلامى، إلى ما لم ترد به النصوص.

ذلك هو مضمون مصطلح «السياسة» فى فكر الإسلام: «امتصلاص الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى فى العاجل والآجل. . والأفعال التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاص وأبعد عن الفساد. وتديبر المعاش على سنن العدل والاستقامة الإسلامية. .».

(١) ابن القيم [إعلام الموقعين] ج ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م. و [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١٧ - ١٩، ٥ تحقيق: د. جميل غازى، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.

وعلى هذا النحو ظلت السيادة لهذه المضامين فى معاجمنا وقواميسنا إلى أن جاء الاحتكاك الحضارى بين أمتنا وبين فكر الغرب وحضارته، فدخلت فى معاجمنا وقواميسنا المعربة المضامين الغربية المتميزة لمصطلح «السياسة» لتصب فى نفس الوعاء . . الأمر الذى أحدث ازدواجية فى المفهوم والمضمون، رغم وحدة المصطلح والوعاء . . وهى مشكلة تواجه العقل المسلم فى بحثه عن المضامين الإسلامية، المتميزة فى قواميس ومعاجم خلطت مضامين الغرب بمضامين الإسلام عندما عرفت الكثير من المصطلحات! . .

فإذا كانت «السياسة»، فى العرف الإسلامى لا تقف عند استصلاح الخلق فى العاجلة - [الدنيا] وحدها؛ لأن صورة الإنسان فى الإسلام هى صورة الخليفة عن الله، والذى يعمر الدنيا كمعبر للآخرة، التى هى خير وأبقى . . فإن «السياسة» فى الحضارة الغربية، ذات الطابع الوضعى، إنما تقف عند تدبير الإنسان لحياته الدنيا وحدها . . فهو فى عرف تلك الحضارة سيد هذا الكون، ومقاصد عمرانه لدنياه هى تعظيم اللذة فى هذه الحياة، وتنمية الوفرة المادية، وتكثير القوة، دوغما رابط يربط ذلك بالدار الآخرة، أو ضابط دينى، ولا معيار شرعى يتخذه إطاراً حاكماً لهذه التدابير والسياسات . . فالواقع المحسوس هو المنطلق - والعقل والحواس هما سبيل المعرفة . و «مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ» [الجاثية: ٢٤] . . إنها سياسة دنيوية المحتوى والمقاصد، لا تتغيا شيئاً خارج العمران الدنيوى، ولا تحكمها أية معايير غير دنيوية، ولا دخل فيها لسنن الدين وفلسفته وضوابطه! .

ولهذه النظرية الدنيوية الخالصة للإنسان، ولسياسته للعمران البشرى، كانت علمانية الحضارة الغربية فصلاً للدين، لا عن «الدولة» وحدها - كسلطة تنفيذية - وإنما فصلاً له واستبعاداً لمعايره من كل شئون العمران البشرى، المعرفية، والاجتماعية، والتربوية، والاقتصادية، والأخلاقية، والفلسفية . . إلخ . . إلخ . . فإنسانها «دنيوى» ذو مقاصد «دنيوية» تحكم سياسته للعمران المعايير الدنيوية وحدها .

وعندما يكتب أستاذ مسيحي مُعرِّفاً مصطلح «العلمانى» - Secu Lar - فيقول إنه «نسبة إلى العلم - [مصدر غير قياسى] بمعنى العالم، وهو خلاف الدينى أو الكهنوتى،

وهذه تفرقة مسيحية لا وجود لها في الإسلام، وأساسها وجود سلطة روحية هي سلطة الكنيسة، وسلطة مدنية هي سلطة الولاة والأمراء. والعلمانيون يُحكّمون، بوجه عام العقل، والمصلحة العامة دون تقييد بنصوص أو طقوس دينية. «^(١)». فإنه يقدم شهادة - غير متهمه - على أن العلمانية الغربية - فضلاً عن أنها خصيصة غربية - هي فصل للدين عن الدنيا. واستبعاد لمعاييرها عن أن تكون حاكمة في سياسة العمران. . كل العمران. .

ولذلك كان طبيعياً في حضارة علمانية أن تكون السياسة علمانية هي الأخرى، فهي تدبير «الإنسان - الدنيوى» لحياته «الدنيا»، وصولاً إلى مقاصد «دنيوية» صرفة - ولقد صاغ مكيا فيللى [١٤٦٩ - ١٥٢٧م] في كتاب [الأمير] فلسفة السياسة في الحضارة الغربية العلمانية، باعتبارها: «الممكن من الواقع» - دوغماً ضوابط أو معايير دينية لهذا الممكن من هذا الواقع. . وتحدثت القواميس عن هذه السياسة - Policy - فقالت: «إنها أسلوب معين للعلم اختبر بطريقة مقصودة بعد استعراض كافة البدائل الممكنة. . .». دوغماً إشارة إلى الصلاح الدينى الذى يربط سياسة الدنيا بمقاصد الآخرة. . ولذلك جاهرت التعريفات الغربية بأن «القوة» وعلاقتها، والصراع بين مالكيها هما محور هذه «السياسة». فالتعريفات الحديثة للسياسة - Politics - تذهب إلى أن محور السياسة: هو الصراع حول طبيعة الحياة الخيرة، وعلاقة مصالح الجماعة بها. أما العناصر التحليلية الرئيسية فهي: الصراع، والقوة. والفعل السياسى: هو الذى يحدث من خلال منظور القوة التى تمارس من خلال عملية الحكم وفى إطار الدولة. ودراسة السياسة: هى تحليل لعلاقات القوة. «^(٢)».

فالإنسان دنيوى فقط. . والحضارة دنيوية - علمانية - فقط. . ومن ثم فالسياسة فيها هى فن الممكن - الدنيوى - من الواقع - الدنيوى. . دوغماً علاقة بين هذه الدنيا وبين الآخرة، ولا علاقة بين تدبير المعاش وسياسة العمران، وبين الاستقامة الدينية.

ذلك هو جوهر ومنطلق الخلاف بين مضمون «السياسة» في الحضارة الإسلامية، ومضمونها في الحضارة الغربية. يبدأ الخلاف حول تصور كل حضارة لـ «الإنسان» - أخليفة هو عن الله، سبحانه وتعالى. فتكون دنياء معبراً إلى الآخرة، التى هى خير

(١) د. حنا رزق. انظر [معجم العلوم الاجتماعية] تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مذكور. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

(٢) [قاموس علم الاجتماع] تحرير ومراجعة: د. محمد عاطف غيث. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

وأبقى، فيسوس عمران الدنيا بشريعة الدين، قياماً بتكاليف عقد وعهد الاستخلاف .
على النحو الذى يجعل هذه «السياسة»: «سياسة - شرعية» . ٩٩ أم أن هذا الإنسان هو
سيد هذا الكون، الذى تقف معارفه وعلومه عند ظاهر الحياة الدنيا . . والذى تتغيا
سياسته للعمران تحقيق المقاصد الدنيوية ولا شئ وراءها . . حتى ليفصل الدين عن
العمران كله، وليس فقط عن الدولة «كسلطة تنفيذية» ٩٩ .

هكذا وجدنا ونجد أنفسنا أمام مضمون واحد لمصطلح «الإسلام» . وأمام مضمونين
متميزين لمصطلح «السياسة» اختلطا فى المعاجم والقواميس، التى صبت المعانى الغربية
المتميزة فى أوعية المصطلحات التى اتفقت فيها الحضارات ! .

وإذا كنا نلح اليوم، ونحن نسعى إلى صفاء الرؤية الإسلامية، وإلى تحرير العقل
المسلم من الغبش الذى ألحقه به عدم التمييز بين «أوعية» - مصطلحات - لا مشاحة فى
وضعها واستخدامها، وبين «مضامين» تحمل خصوصيات حضارية متميزة بتميز
الحضارات والثقافات . . إذا كنا نسعى إلى ذلك، فنحن لا نبتدع اختراعاً غير
مسبوق . . فالعلامة ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ ١٣٣٢ - ١٠٤٦ م] عندما تحدث عن
«الدولة» و «الملك» - الذى تشترك فيه كل ألوان الاجتماع البشرى - ميز بين
«السياسات» التى تطبع وتصيب الدول وسلطات الملوك . . فتحدث عن تميز «السياسة
الإسلامية» عن «السياسة الدنيوية» . . فالأولى سياستها شرعية، تربط صلاح الدنيا
بصلاح الآخرة، بينما لا تربط الثانية بين الصلاحين . . فالسياسة الدنيوية هى التى تقف
مرجعيتها عند العقل، كملكة للإنسان الدنيوى . . بينما تجعل السياسة الإسلامية من
الشرعية إطاراً حاكماً لحركة العقل المسلم، وصولاً بالسياسة إلى تغى سعادة الدنيا
والآخرة كليهما . . بل لقد ميز ابن خلدون بين هذين اللونين من ألوان «السياسة» وبين
«سياسة القهر» والاستبداد، التى لا قانون لها، ولا مرجعية تحكمها إلا شهوة استبداد
المستبدين ! .

لقد تحدث ابن خلدون عن أنواع السياسات هذه، فقال: « . . وحقيقة الملك: أنه
الاجتماع الضرورى للبشر . . ويجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة
يسلمها الكافة ويتقادون إلى أحكامها . . وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم
يستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها، سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها - كانت سياسة عقلية .

وإذا كانت مفروضة من الله ، بشارع يقررها ويشرعها ، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ، فإنها كلها عبث وباطل ، إذ غايتها الموت والفناء والله يقول : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنون : ١١٥] والمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة في آخرتهم ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم ، من عبادة ومعاملة ، حتى في الملوك ، الذي هو طبيعي ، للاجتماع الإنساني ، فأجرتة على منهاج الدين ، ليكون الكل محوطةً بنظر الشارع ، فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال^(١) القوة الغضبية في مرعاها ، فجور وعدوان ومذموم عنده ، كما هو مقتضى الحكمة السياسية ، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها ، فمذموم أيضاً ؛ لأنه نظر بغير نور الله ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] ؛ لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم ، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم ، من ملك أو غيره ، قال ﷺ : « إنما هي أعمالكم ترد عليكم »^(٢) .

وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم : ٧] ، ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة ، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء .

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة :

• والملك الطبيعي : هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة .

(١) أى إطلاق .

(٢) وفي صحيح مسلم : « إنما هي أعمالكم أحصيا لكم » .

❖ والسياسى : هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار .

❖ والخلافة : هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به . . .^(١)

فالساسة . . كالملك . . والدولة . . مصطلحات عامة فى كل النظم والحضارات . . لا مشاحة فى وضعها ولا فى استعمالها . . لكن المضامين ، فى هذه المصطلحات ، تمتاز بتمايز النظم والحضارات . .

فالساسة الشرعية هى التى تتغيا بتدبير عمران الدنيا تحقيق سعادة الآخرة . . وإنسانها خليفة عن الله ، يتعبده بسياسة العمران الدنيوى . . فهو عبد لله وحده ، وسيد لكل شىء بعده ! .

بينما السياسة الدنيوية - العلمانية - التى تقف بمرجعيتها عند عقلاء الدولة وأكابر بصرائها ، فإنها تتغيا - بتعبير ابن خلدون أيضاً - « مصالح الدنيا فقط » « يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

وهكذا تميز مضامين « السياسة » بتميز صورة ومثال « الإنسان » :

أخليفة عن الله فى هذا الوجود؟؟؟ .

أم السيد فى هذا الوجود؟؟؟ .

(١) [المقدمة] ص ١٥٠ ، ١٥١ . طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .